6

الحب والزواج في الإسلام

بعد نحو تسعة شهور من نطقي بالشهادة واعتناقي الإسلام، التقيت رجلاً وتزوجت وفقاً للطريقة الإسلامية. منذ إقامتي في غينيا، لم يكن موضوع الزواج بعيداً عن ذهني، وقد قضينا ساعات عديدة نناقش ذلك في مطبخ ساندرا. مؤسسة الزواج الإسلامي، الحقوق والواجبات التي ينطوي عليها، طريقة عقد اللقاءات مع الإخوة، نوعية الأسئلة التي ينبغي طرحها، ما ينبغي فعله إذا بدأ يتصرف «بطريقة غير متوقعة» ناقشنا ذلك كله بجدّية، تكلمنا بصراحة وضحكنا بصوت عالٍ.

كنا جميعاً غير متزوجات حينها، ولم نكن نعرف بالطبع ما ينتظرنا. لكن بعد عدّة اجتماعات غير ناجحة، تخليت عن لقاء الإخوة، وأخذت على نفسي عهداً بألا أفكر بالزواج مجدداً، ووضعت خططاً ضبابية للسفر حول العالم بدلاً من ذلك. وعندها أخبرنا أحد معارفنا من الجامعة عن أخ كان قد نشأ معه. وفقاً للوصف ـ أخ أفريقي اعتنق الإسلام، ملتزم، ملتحٍ، يدير مزرعة والدته، مثقف، هادئ ويتحمل المسؤولية ـ كان يبدو مناسباً أكثر من أي شخص آخر التقيته. وافقت على تنظيم لقاء بينه وبين ولي أمري، حارسي، وهو إمام مسجد ريجنت بارك، الذي خاض معه جولة مبدئية من الأسئلة. لحسن الحظ، نجح في الانتقال إلى الجولة اللاحقة، وبعد الاتصال بي في العمل، التقينا في المسجد. عرفت أنني أريد الزواج منه بعد ثلاثة أيام.

الحب والزواج

قال النبي ﷺ: من تزوج فقد استكمل نصف إيمان فليتق الله في النصف الباقي». حديث حسن رواه الطبراني.

منذ رحلتي إلى غينيا، كنت أعرف أن الزواج جزء أساسي من طريقة الحياة الإسلامية. كما قلت سابقاً، كان كل من التقيتهم يحاولون تعريفي بشخص يعرفونه. بطريقة ما، فهمت السبب. نظرت حولي ورأيت أزواجاً وزوجات، أطفالاً وجدوداً، أعماماً وأخوالاً، أبناء عم وخال، جميعهم مرتبطون بعروة العائلة. وأدركت حينها أن الزواج إحدى أهم المؤسسات لأجل ذلك، عبره كانت العائلات ترتبط ببعضها بالنسب، وتقوم بتشكيل عائلات جديدة، تربية جيل جديد والعناية بالجيل الأكبر سناً. أستطيع أن أتخيل مدى العزلة إذا حاولت عيش حياة إسلامية وحدي، دون أحد يوقظني في الصباح للصلاة، دون أحد يتناول الإفطار معي، دون أحد يذكّرني بالله عندما تنخفض معنوياتي ودون أحد يشاركني أفراح وأتراح تربية عائلة مسلمة.

على مستوى شخصي، يقدّم الزواج فردوساً يزدهر فيه الحب، العواطف والمعاشرة، بشكل حرّ من القيود. هذا هو الهدف الأسمى الذي وضعه الله عندما قال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

نظـراً إلى أن العلاقات الجسـدية ممكنـة بحريـة في مجتمعنا ـ عبر العلاقـات السـابقة للزواج والعابرة، والسـكن المشـترك وعلاقـات الليلة الواحـدة ـ يعتقـد الكثير من الناس اليـوم أن فوائد الـزواج قليلة مقارنة بالمسـؤوليات التي ينطوي عليها. الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم. بطرق عديـدة، يمثّل الزواج نوعاً من الحرية لنا. ضـمن الزواج، تصـبح الكثير من الأشـياء التي كانت محرّمة شـرعية، وتلقى القبول. يسـتطيع الشـاب والفتـاة آنذاك التفاعل مع بعضـهما ودون قيود، وتسـتطيعين التخلي عن حذرك، نزع حجابك، الضـحك والصـراخ، الخروج من المنـزل أو البقاء فيه. بالمختصر، تستطيعين الاشتراك في كل شيء مع شخص واحد مميز. علاوة على ذلك، المتع الجسدية متاحة لك. بالفعل، إحدى الأهداف المعلنة للزواج الإسـلامي هي السماح لمعتنقي الإيمان بإرضـاء رغباتهم بطريقة وأسلوب شرعيين (حلال) ويجزيهم في الواقع الثواب، في هذه الحياة على شكل سعادة وذرية، وفي الآخرة رضا من الله.

الزواج، لهذا السـبب، مصـمم لحماية الفرد من الحـرام والأمراض المتنوعة التي تنتج إما عن كبت الرغبات الجنسية أو الاختلاط الجنسي.

بخـلاف الأديان الأخرى، ليـس للرهبنة مكانة رفيعة في الإسـلام. في الواقع، عنّف النبي ﷺ أولئك الذين يسعون لأن يصبحوا ورعين بالابتعاد عن العلاقات الجنسـية مع النسـاء بقوله: «وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنتي فليس مني» رواه مسلم.

لهذا كان واضـحاً أن الزواج شـيء لا يمكنني تفاديه. ليس أنني أردت ذلك، كنت أشـعر بالإثارة من احتمال لقاء رجل اشـترك في وقتي، ودِيني وحياتي معه.

توقع غير المتوقع

أتذكر بوضوح أنه في الأيام الأولى من إسلامي، لم تكن إحدانا ترغب بالزواج من أخ «مسلم ملتزم ومتشدد»: «ماذا، وأن يقول لي بأن كل شيء حرام طيلة الوقت؟ قطعاً لا!». كانت تلك أياماً شاع فيها سماع أشياء مثل: «زفاف سيكون حراماً قطعاً!». كان ذلك يعني أنه لا يمكن فصل الرجال والنساء، وأن العروس لن تكون مغطاة بشكل ملائم وأنه ستكون هناك حفلة كبيرة بعد ذلك، وسيرقص الجميع! يعكس هذا مدى فهمنا للإسلام في تلك الأيام. كلما تعلمنا المزيد والمزيد وأصبحنا أكثر التزاماً روحياً، تغيرت أولوياتنا. لم نعد نرغب بعد ذلك بأخ ضعيف، أردنا شخصاً قوياً في الدين، شخصاً يشجعنا على تعلم المزيد، شخصاً يريد أن «يعيش الإسلام» كما نرغب نحن بذلك.

«كنت أبحث عن شخص متدين يحب أن يتعلم، يذهب إلى الدروس، شخص يعمل على إنشاء أسرة إسلامية. أسرة يحتل فيها الدين طليعة الاهتمامات، ويتم فيها ممارسة الشعائر الإسلامية وليس مجرد الحديث عنها، وليس يوم الجمعة فقط. الإسلام طريقة حياة وهذا ما كنت أريده: طريقة إسلامية في العيش. أردت أن أعيش الإسلام» أم محمد.

مثل معظم المسلمات، استلهمت أفكاري عن الزوج المسلم المثالي من صفات النبي ﷺ نفسه. كما ذكرت سابقاً، كان محمد ﷺ، رجل العائلة، يسحرني.

كان مثالاً رائعاً عن الرجولة في الإسلام، والشخص الذي وازن بدقة بين الدين والدنيا. فيما كان، من جهة، يعلّم المسلمين شؤون دينهم،

يشارك في مناسباتهم، يحكم بينهم، إضافة إلى تلقي الوحي، كان يبكي في صلاته، ويبقى مستيقظاً طيلة الليل يصلي، حتى تتورّم قدماه. أحببت أيضاً الطريقة التي وصفته بها الأحاديث المنقولة عن زوجته عائشة: كيف كان يضع شفتيه في المكان الذي لمست فيه شفتاها الكأس عندما يشرب الحليب، كيف كانا يتسابقان فيما بينهما، كيف كان يلاعبها وتلاعبه. تعلمت أنه كان لطيفاً وصبوراً للغاية، ويساعد في أعمال المنزل، يخدم أسرته ويرتق أحذيته. كان ذلك العمل صعباً للغاية.

أهم من أي شيء آخر، كنت أحب فكرة الزواج من مسلم، رجل متواضع يسجد لمولاه خمس مرات في اليوم، وشخص يجسّد المُثل العليا للشخصية الإسلامية. كنت أتوقعه أن يكون صادقاً، كريماً لطيفاً ومحباً. أردت شخصاً يخاف الله في العلن والسر، شخصاً يقّر بالخطأ عند وقوعه ومستعد لقبول النصيحة من الآخرين، خاصةً من زوجته!

لهذا، في مناحٍ كثيرة، كانت توقعاتي عالية جداً عن أي شريك محتمل، وآمل أن يكون أفضل كثيراً من الأصحاب الذين عرفتهم قبل الإسلام، في الجاهلية. وكان مبعث راحة بالتأكيد أن أعرف أنه، بشكل عام، سيحاول الإخوة المهتمون حقاً بالزواج السؤال عن أخت ترتدي الحجاب! بعد خوض تجربة جدّية في الجاهلية، قالت هاجر: «كانت توقعاتي عالية حقاً بشأن زواجي الإسلامي، ذهبت إلى لقائي مع زوجي بصفحتين ونصف من الأسئلة. وكان قد أجاب على سؤال إثر آخر حتى قبل الوصول إلى مرحلة الزواج».

كنت أتوقع أيضاً من زوجي أن يؤدي دوره بوصفه مُعيلا. في الحديث، قال النبي ﷺ أن من حق المرأة أن تأكل كما يأكل زوجها، تلبس كما يلبس وتسكن حيث يسكن.

لكن طموحاتي الشخصية لم تتبخر حتى عندما ازدادت رغبتي بالزواج. منذ سني مراهقتي، في مرحلة «المنزل الكبير في ضواحي هراري» من حياتي، كنت آمل دائماً أن يكون لي عملي الخاص، وأجني المقدار نفسه من المال، إن لم يكن أكثر، مثل زوجي. بعد أن اعتنقت الإسلام آنذاك، كنت ما أزال أنوي أن أجني مالي الخاص (برغم أنني لم أكن أعرف الطريقة تماماً في تلك المرحلة)، لكني كنت أعرف أنه وفقاً لشريعة الله، من واجب الرجل أن يعتني بعائلته، مالياً وغير ذلك. كانت فوائد الزواج واضحة لي عندما أدركت أنه مهما جنيت، بوصفي امرأة، يمكنني الاحتفاظ بذلك لنفسي، أدّخر وأنفق كثيراً أو قليلاً حسب ما أشاء. يمكنني رؤية مزايا أكيدة في ذلك النظام.

لم يكن في نيتي أبداً القبول بأقل مما منحه الله لي وكان ذلك يستلزم تغييراً في أولوياتي. كنت أتوقع، مثل معظم المسلمات الأخريات، أن أتزوج رجلاً مستعداً لإنشاء عائلة. هناك تشديد كبير على إنجاب الأطفال في الدين، ومن النادر أن نجد مسلماً ملتزماً ينأى بنفسه عن تحمل مسؤولياته بوصفه أباً. في ذهني، كان الزواج والأطفال متلازمين.

سابقاً، كنت أرى نفسي سيدة أعمال أولاً، أنجب أطفالاً لكن أستعين بمربية أو خادمة للعناية بهم، مما يسمح لي بمتابعة عملي. لكن الإسلام جعلني أنظر إلى دوري المستقبلي بوصفي زوجة وأماً بشكل مختلف. قرّرت

أنني أرغب بتربية أولادي بنفسي. كنت أعرف، كما هي حال العديد من الأمهات العاملات، أن متطلبات تربية الأولاد، العناية بالمنزل والعمل سترهقني. لم أكن أريد أن أتحمل أدواراً ومسؤوليات متعددة. ولم أكن أريد تفويت تلك اللحظات الثمينة الخاصة بطفلي، رؤية خطواته الأولى، سماع كلماته الأولى وتشكل شخصيته. عندما يحين الوقت، كنت أريد بحق إلقاء نفسي في الأمومة، وأن يحظى طفلي بالاستقرار نتيجة وجود أمه المستمر في المنزل. شعرت، كما يعلّم الإسلام، أن ذلك سيكون أكثر قيمة من أي أموال إضافية سأجنيها من عملي خارج المنزل. لهذا كان النظام الإسلامي التقليدي في خروج الزوج للعمل وبقاء الزوجة للعناية بالأطفال في المنزل مغرياً بالنسبة لي، لكني كنت أستطيع الحفاظ على نوع من الاهتمامات الخارجية، وربما جني بعض المال بينما أقوم بذلك.

«لا أتوقع أن يعيلني أحد تماماً لكن، في الدين، هذه هي مسؤولية الزوج. إذا تم تقييد ذلك العمل، ربما يجعله ذلك أقل رجولة، ولا يفعل ما كلّفه الله القيام به» شريفة.

لكن كان هناك جزء مني، الجزء المشاكس دون شك، يشعر بالرضا و«الإذعان» للزواج من ذلك «المسلم الطيب». كنت أقول لنفسي: ما هي برأيكِ نتيجة كل تلك العبادة والتقوى؟ بالتأكيد، ستحصلين على رجل طيب ولطيف، رجل يصلي ويصوم، لكن واجهي الأمر، سيكون مملاً للغاية.

لا أعرف من أين جاءت تلك الفكرة، لكن كانت لدي صورة عن المسلم الملتزم بأنه رصين، لا يجاري العصر ويفتقر لحس الدعابة. هل سيقول لي باستمرار أن أخاف الله، أتوقف عن الضحك وأن هذا الشيء أو ذاك الأمر

حرام! بطريقة ما، لم أكن أعتقد أن المتعة، والمرح والرومانسية التي يتعلم المرء أن يتوقعها في علاقة في الغرب لها مكان في الزواج الإسلامي.

والأسوأ من ذلك، كان هناك جانب مظلم في توقعاتي. كان جزء مني خائفاً، خائفاً جداً، من أنني سأحظى بزوج مسلم من النوع الذي نسمع عنه في قصص الرعب. كنت خائفة أن أكتشف أنه وحش، يبقيني حبيسة المنزل، يمنعني من رؤية صديقاتي وعائلتي، ويدفعني لأن أكون نوعاً من الزوجات، نوعاً من النساء اللواتي يوافقن أفكاره. كنت خائفة من الوقوع في زواج يوفر لي الأمان، والاستقرار والحماية من ناحية؛ ويسلب مني استقلاليتي، وشخصيتي وحرية التواصل مع الآخرين، من ناحية أخرى.

تزوجتِ بعد لقاء واحد!

حالما بدأت مع سارة وحنّا التفكير بجدّية بشأن الزواج، كان نظام «اللقاء» الإسلامي شيئاً بدأنا نتعرف عليه جيداً. لم يكن غير شائع بالنسبة لأخ أن يرى أختاً ثم يرسل زوجة صديقه لتسأل: «يا أختاه، هل ترغبين بالزواج؟». كان يرافق ذلك عادة نظرات خفية على الشاب الواعد، تورّد من الخجل وضحكات خافتة إذا كان يبدو مناسباً، قهقهات مكتومة ووكزة بالمرفق إن لم يكن كذلك. أحياناً، كان الأمر يصل إلى مرحلة يلتقي فيها الاثنان، بوجود مرافقة، وحالما تعود الفتاة إلى أخواتها، كانت تشاركهن كل التفاصيل المثيرة لما حدث. إن بدا أنه «الشخص المناسب» حقاً، على أي حال، كانت الأمور تأخذ منحًى أكثر جدّية. ثم، يتم قراءة كتب عن موضوع الزواج، وضع قوائم بالأسئلة التي سيتم طرحها، السعي للحصول على النصيحة من «ذوي الخبرة» وخوض مناقشات جادة حول ما إذا كان «النصف الآخر» المنتظر.

إذاً، كيف بالضبط ينتهي الأمر بمسلمين ملتزمين للقاء بعضهما، وأخيراً، الزواج في بيئة غربية؟ كيف يكون الأمر عادة بالنسبة لامرأة، مثلاً، عندما تقرر أنها وصلت إلى مرحلة أضحت فيها جاهزة للزواج؟ سيكون عليها عندها أن تخبر والديها، وعائلتها وصديقاتها بأنها «تتطلع لأن تتزوج» وأن تناقش معاييرها بشأن ذلك.

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة وفساد في الأرض».

حديث عن النبي ﷺ، رواه الإمام الترمذي، حسن.

كان يمكن لمعاييرها أن تتضمن أساساً المستوى الديني الذي تتطلع إليه، نموذج الشخصية، سماته ومظهره، إضافة إلى خلفيته التعليمية والثقافية، أي شيء تعتقد أنه سوف يساعد عائلتها وصديقاتها على إيجاد القرين المناسب. نصح النبي ﷺ كلاً من الرجال والنساء بالبحث عن شركاء متدينين، يكون إسلامهم قوياً. هذا يعني أن المرأة المسلمة الملتزمة ستبحث عن رجل ذي شخصية طيبة، نبيل ولطيف، كريم وصبور، رجل يخاف الله، يصلي، يصوم ويطيع مولاه سراً وعلانية.

بعد ذلك، سيقوم الناس إما باقتراح شركاء محتملين أو البحث عنهم. لهذا ربما يكون لدى شقيق الفتاة صديق، أو لدى صديقتها شقيق، يمكن أن يصبح قريناً مناسباً. يتبع هذه المرحلة عادة مدة تحقق. نيابة عن الفتاة، تطرح العائلة والأصدقاء أسئلة عن الرجل في «محيطه الطبيعي»، وتكّون فكرة عن شخصيته وكيف يتعامل مع الآخرين. يسألون أيضاً أشخاصاً آخرين يعرفونه ويحصلون على معلومات منهم.

إذا حصل الأخ على موافقة كل المهتمين، يقوم والد الفتاة أو وليّها بالاتصال به أو بوالديه. ثم، إذا كان مهتماً وكان الولي والعائلة راضين، يلتقي الشابان بحضور شخص ثالث. ونظراً إلى أن المسلمين يشجعون الزواج من شخص يجدونه جذّاباً من الناحية الجسدية، يمنحهما هذا اللقاء فرصة اكتشاف ما إذا كانا ينجذبان إلى بعضهما. سيحظيان أيضاً بفرصة لمناقشة الأشياء المهمة لهما وطرح أي أسئلة قد تكون لديهما. في الواقع، يستطيع الثنائي المحتمل اللقاء ببعضهما قدر ما يرغبان، بناءً على الظروف. على أي حال، يتلقى المسلمون دائماً نصائح بعدم الإكثار من اللقاءات قبل الزواج فعلاً. هناك عدد من الأسباب الوجيهة لهذا. إحداها، وفقاً للشريعة الإسلامية، أن كلاً من الشخصين المعنيين ليس حلالاً بالنسبة للآخر، وليس مسموحاً لهما قضاء وقت اجتماعي أو الوجود معاً وحدهما، ورسمياً، يكونان ما يزالان مثل أي رجل وامرأة مسلمين آخرين غير مرتبطين ببعضهما. من الواضح وجود تواصل اجتماعي، في أثناء تلك اللقاءات، والذي ينبغي أن يبقى في حدوده الدنيا، ومن ثم تقليل فرص السلوك غير الملائم. ليس نادراً أن يقع ثنائي ملتزم عادة في الزنا (اتصال جنسي غير شرعي) بسبب لقاءاتهما الكثيرة التي قادتهما إلى الغواية. في لحظات معينة، تسيطر الغرائز، ويتم نسيان كل الأحكام، والتحذيرات والعواقب. ولا يريد أي مسلم ملتزم أن يفقد السيطرة على نفسه أو نفسها بتلك الطريقة.

يبدو انتقاء الشريك بناء على الانجذاب العاطفي له أو لها طبيعياً وإيجابياً لمعظم الناس. لكن مشاعر مثل الحب والرغبة لها طريقة في رسم الصور، تغذية الخيالات ونسج الأوهام. الرجل ـ أو المرأة ـ الذي

تقعـون في محبته أو ترغبون به ليس بالضـرورة شخصـاً صـادقاً، جديراً بالثقـة، كريماً، لطيفاً ومسـؤولاً، وليس بالضـرورة مـادة زواج جيد. لهذا بإبعاد المشـاعر، يستطيع المرء تقييم شخص بطريقة سليمة منطقية، وأن يرى بوضـوح نقاط ضـعفه وقوته، ويمكنه لاحقاً اتخاذ قرار منطقي. لكن أحيانـاً، بالطبع، تعرفين أنه لا فائدة إطلاقاً من مجرد التفكير بلقاء ثانٍ، ليس هناك شعلة على الإطلاق!

كنت أنا وصـديقاتي محظوظـات؛ لأننا حظينا بصـفوة منتقاة عندما كنـا نتطلـع لأن نتزوج. عندمـا كان الإخوة يثيرون معنا الموضـوع، كنا إما نقبل أو نرفض. لم يكن ذلك يتفق والشكل النمطي للفتاة المسلمة التي يتم دفعها إلى زواج مُدبّر. كان ذلك يعود في سبب منه إلى حقيقة أننا، معتنقي الإسلام، نعملُ باستقلالية كبيرة. برغم أنني وصديقتي سارة كان لنا الولي نفسـه، لكن لأنه ليس أحد أفراد العائلة، لم يكن يستطيع إرغامنا أو منعنا عن القيام بشيء نشعر بأنه صحيح. أيضاً، لم نكن عُرضة لتأثيرات عائلية قوية ولهذا كنا مسـتقلتين تماماً في قراراتنا. لطالما فكرت بأن ذلك شـيء جيد، كما تعرفون، شابة مستقلة تشق طريقها بنفسها. هذا ما كانت عليه الحال حتى بدأت أرى أمثلة عن تلك الاسـتقلالية نفسها تذهب في الاتجاه الخاطـئ. في المجتمع الذي انتقلت إليه، لم تكـن أغلبية عائلات الفتيات، سـواء كانت غير مسلمة أو غير ملتزمة، تتدخل في قراراتهن. لهذا شهدت أخوات يتزوجن إخوة دون سؤال عنهم. رأيتهن ينخدعن بالمظاهر. رأيتهن يتخلـين عن حقوقهن ــ المهر الذي يرغبن بـه، العقد، النفقـة ـ لأنهن لم يكن يمتلكن المعرفة (أو الشـجاعة) للإصرار على نيل حقوقهن الشرعية. وجعلنـي ذلك أفكر بجدّية بشـأن دور العائلة في الزواج الإسـلامي وكيف يمكنها حمايتكِ جيداً.

في كل المجتمعات تقريباً خارج الغرب، لطالما كان الزواج شأناً عائلياً، وليس قراراً فردياً. هذا يعني أن العائلات تلعب دوراً فعالاً في مساعدة أبنائها على اختيار الشريك. ولم لا؟ بالمحصلة، الزواج عروة بين عائلتين بالإضافة إلى شخصين. لهذا أردت مناقشة قضية «التطلع إلى الزواج» مع امرأة تحظى بمثل ذلك النظام الأسري من حولها، صديقتي، رابية.

قالت لي: «لدي ميزة تتمثّل في عائلتي. أعرف أنه سيتم التحقق من الأخ تماماً، وأن عليه تلبية بعض الشروط، وإثبات أنه رجل مسؤول. لم أقلق أبداً بشأن ذلك الجانب من الأمور؛ لأنني أعرف أن أبي سيتولاه. بالنسبة لي، كل ما كنت بحاجة للتأكد منه هو دينه، شخصيته، ماهية خططه للمستقبل، وأشياء من هذا القبيل. أشعر بأنني محظوظة جداً؛ لأنني أتمتع بدعم العائلة ولأنني أيضاً صعبة المنال بالنسبة للإخوة، وأكثر منعة. بعضهم لن يستطيع حتى الحصول على موافقة أبي!».

أردت أن أعرف إن كان لا يزعجها قيام والدها بالتدقيق في طالبي يدها. بدت مندهشة من السؤال وضحكت.

«أخ عاطل عن العمل، يعيش في منزل مع عائلته، شخص دون إمكانيات أو مؤهلات، جديد على الدين، سيعرف أنه لا فائدة تُرجى! لأنه يعرف أن أول شيء سوف يسأله أبي عنه هو: «هل لديك عمل؟ كيف ستعيل ابنتي؟». وأريد شخصاً لديه أجوبة عن تلك الأسئلة!».

بخلاف «الزواج المنظّم» في بعض الثقافات، لم يتم التخطيط لزواجي فيما كنت لا أزال طفلة أو لقريب «في الديار». وبخلاف النظرة العامة، لم يكن «زواجي المنظّم» مفروضاً علي أو جرى التخطيط له دون علمي.

رأيت زوج المستقبل ورآني، وإن كنت أرتدي حجابي. ناقشنا قضايا متنوعة وتطور قبولنا لبعضنا ورغبتنا بالزواج.

بالفعل، الفرق الرئيس بين الزواج المنظّم ثقافياً والزواج الإسلامي هو في عنصر الاختيار. تاريخياً، وعبر العالم، كانت تتم خطبة الأطفال إلى بعضهم، وأحياناً منذ الولادة، ولم يكن الزوجان غالباً يلتقيان بعضهما سوى في ليلة الزفاف، بعد إتمام المراسم. كان عقد الزواج يتم لتأمين عروش، ضم عائلات قوية، تحسين النسل، تقوية الروابط العائلية، وكان يتم دفع المهور للعائلات. في كل تلك الحالات، كان يُتوقع من الشباب الإذعان لقرارات العائلات، وكانوا مجرد بيادق في لعبة أكبر منهم. حتى اليوم، في العائلات الآسيوية وغيرها، الزواج المنظّم مرادف للزواج القسري، مع وجود ضغوط عائلية ومجتمعية تضمن قبول الأولاد للشريك الذي يختاره أهلهم دون نقاش.

النسخة الإسلامية الصحيحة عن «الزواج» المنظّم مختلفة تماماً. وفقاً لسُنّة النبي ﷺ، الزواج الذي لا يحظى بقبول الرجل والمرأة لا يعد شرعياً. ولا يمتلك أحد السلطة لعقد زواج نيابة عن ابنه. إضافة إلى ذلك، ينبغي أن يلتقي الثنائي ويشاهدان ما إذا كانا يرغبان ببعضهما. المهر هدية يمنحها الرجل لعروسه المستقبلية جزءاً من الزواج. بخلاف ما هو شائع في ثقافات أخرى، هذه الهدية لها وليس لعائلتها.

لهذا، يقع «الزواج المنظّم» الإسلامي الحقيقي في منتصف الطريق بين الزواج القسري المقيد وعالم الاختلاط الحر، المواعدة والسكن المشترك.

لطالما اعتقدت بوجود الكثير من المزايا في البحث عن زوج بالطريقة الإسلامية. أي شخص كان قد قضى سنوات في بناء علاقة تصل إلى

مرحلة ينقلب فيها الرجل ويقول: إنه «ليس مستعداً للالتزام» سيقدّر البساطة الجميلة لرجل يتكلم بشكل مباشر: إذا كان مستعداً للزواج، فسيطلب يدكِ؛ وإن كان غير ذلك، فسيبقى بعيداً.

كلما أخبرت أشخاصاً عن «زواجي المنظّم»، كانوا يعبرون عن دهشتهم، شكوكهم ويبدون قليلاً من الحسد: «هل تعنين أنك لم تكوني وحدك معه أبداً؟ لم تمسكي بيده إطلاقاً. عرفت أنك ترغبين بالزواج منه بعد ثلاثة أيام من لقائك به؟». سألت هاجر عن مزايا الزواج على الطريقة الإسلامية، وقالت: «التخلّص من كل الترُّهات! كل هراء التظاهر، والادعاء بأنكِ شخص مختلف، ومحاولة إسعاد شخص والارتقاء إلى مستوى توقعاته».

غني عن القول: إن الطريقة الإسلامية تخلو من مشكلاتها وخصائصها المميزة. هناك دائماً فرصة لأن يقدم الأخ صورة زائفة عن نفسه، يتظاهر بأنه تقي ويخاف الله فيما يكون في الواقع وحشاً شريراً، ويعمد إلى تدمير حياتكِ! من الواضح أن العامل الحاسم يتمثّل في قيامكِ وعائلتك بالتدقيق جيداً في الأزواج المحتملين وخلفياتهم.

يحدث أحياناً أنه بعد استيفاء كل الشروط، لا يكون الرجل على المستوى المطلوب من ناحية المظهر. يمكن لذلك أن يسبب القلق فعلاً؛ لأن الجاذبية الجسدية تُعدّ عاملاً مهماً!

«كانت إحدى أكبر بواعث القلق بشأن ما سيكون عليه مظهره، هل سيعجبني؟ هل سأعجبه؟ كنت مهتمة كثيراً بألا يكون ذلك الرجل «مناسباً» لي» صفوة.

في الشريعة، وضع الله قواعد وإرشادات لكل علاقاتنا، في ديننا وحياتنا الدنيوية. لهذا هناك إرشادات للبحث عن الزوج أو الزوجة المناسبة بالطريقة الإسلامية. لا تتوافق الإرشادات الآتية مع الشريعة فحسب، وإنما جرى اختبارها أيضاً: تستند أساساً على تجاربي وتجارب أخواتي.

- لتكن النية صافية. انوي الزواج إكراماً لله، لتحقيق ما أمر به وعبادته أكثر. إذا كانت نواياكِ موضع شك، مثل محاولة الحصول على جواز سفر بريطاني، إدخال شخص إلى البلاد أو تحطيم زواج شخص آخر، فلا تتوقعي أن يبارك الله بزواجكِ!

- اعرفي حقوقك وواجباتك. كونك مسلمة، ينبغي أن تعرفي كل ما يتعلق بأمر ما قبل الإقدام عليه، تأكدي أنك تعرفين كل شيء عن الزواج الإسلامي ومتطلباته. افهمي حقوقك وحقوقه، واستعدي، ذهنياً على الأقل، للوفاء بتلك الحقوق!

- لتكن عائلتك إلى جانبك. حاولي عدم إبعاد عائلتك (سواء كانوا مسلمين أم لا) لأن دعمهم مهم. حتى إذا لم يكونوا يستطيعون الاشتراك في عملية الاختيار، حاولي إشراكهم في احتفالات الزفاف والمناسبات الأخرى إذا استطعت. وجود عائلة قوية خلفك يعدّ أيضاً حافزاً إضافياً للأخ؛ ليأخذ الأمر على محمل الجد ويحترم قراراتك.

- قومي بما ينبغي عليك. فكّري بالزواج على أنه استثمار. إذا كان لديك 100.000 جنيه للاستثمار في شركة معينة، ستقومين بأبحاث عنها، وتدققين بشخصيات المديرين، سجلاتهم الماضية،

مراجعهم وسمعتهم. بشكل مشابه، عندما تتطلعين إلى الزواج من شخص ما، ينبغي أن تقيّمي نفسك بالطريقة نفسها إن لم يكن أكثر. خذي وقتكِ لتفقد أحوال الأخ، اطرحي الأسئلة، واجعلي صديقاتك يطرحن أسئلة، اسألي أصدقاءه، أساتذته، أشخاصاً آخرين يتعامل معهم، حتى إذا استغرق الأمر بعض الوقت. لا تتسرعي أبداً عند اتخاذ هذا النوع من القرارات.

- ليكن الأمر طاهراً. احذري الاقتراب من الزنا، العلاقات الجنسية خارج الزواج. لا تتخلي عن حذرك تماماً، ولا تقض ساعات على الهاتف ولا تجتمعي به وحدكما. ليس فقط أن ذلك ليس مسموحاً، لكنكِ قد تجدين نفسكِ في موقف مثير للشبهات إذا كان هناك انجذاب كبير بينكما.

- كوني صادقة. قولي الحقيقة حول ما تستطيعين تقديمه وما تتوقعينه من زوجك. شجّعيه لأن يكون صادقاً معك بشأن توقعاته، لا تفترضي أبداً أنه سيسافر حول العالم ويقيم في فنادق فخمة كل عطلة نهاية أسبوع، أو أنه لن يفعل ذلك. ليس كل الرجال المسلمين سواء، وكذلك النساء المسلمات. إذا كنت من النوع الذي يحب البقاء في المنزل دائماً، فأوضحي ذلك. إذا كنت تتوقعين أن تتابعي دراستك، فأوضحي ذلك أيضاً. إذا تزوجتِ وفقاً لمزاعم زائفة، فسوف يسبب هذا الكثير من المشكلات. آخر ما تريدينه هو الزواج من شخص يتوقع الاقتران بالسيدة كليفر، ربة منزل رائعة، ويكتشف أنها في الواقع مارثا ستيوارت، أسطورة الأعمال!

- لا تبيعي نفسكِ رخيصة. كوني واقعية بشأن عقدك ومهرك. إذا كانت هناك أي شروط تريدينها في عقدك وتتفق مع الشريعة الإسلامية، فلا تشعري بالخجل من تضمنيها فيه. لا تطالبي بمهر مستحيل؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك. من ناحية أخرى، لا تبخسي من قيمة نفسكِ. المهر حق لكِ، وليس لأحد أن يقيد ذلك. لا يضر برجل أن يكدح قليلاً للفوز بك، فقط لا تطلبي ثروات أمراء العرب إذا كان الشخص الذي سيصبح حبيبك يقود حافلة!

- قومي بأداء صلاة الاستخارة، وهي الصلاة الواجبة عند التماس عون الله في اتخاذ قرار. عندما ترغبين باتخاذ أي قرار، صلّي ركعتين وتضرعي باستخارة إلى الله؛ ليهديك سواء السبيل. إذا لم يكن الزواج خيراً لكِ أو لدينكِ، فستجدين عقبات في طريقكِ وتعرفين أنه ليس الشخص المناسب لكِ.

بعد اتخاذي القرار برغبتي الاقتران بزوجي (بعد ثلاثة أيام من لقائه!) صلّيت صلاة الاستخارة وانتظرت نوعاً من الإشارة. اتصلت في اليوم اللاحق بوالدتي لإطلاعها على نواياي. لطالما كانت والدتي تقول: إنها لا تريد سماع أي كلام عن الزواج قبل أن أبلغ السابعة والعشرين، ولأنني كنت في الثانية والعشرين فقط، كان مفهوماً شعوري بالعصبية. لكنها قالت لي: «هل تعرفين أمراً؟ لا أعرف السبب، لكن راودني شعور جيد بشأن هذا الشخص». واعتبرت تلك إشارة جيدة، إذا كنت قد رأيت واحدة أصلاً!

- ثقي بالله. اعرفي ذلك، إذا كنت مخلصة في طاعة الله والتقيد بما أمر به، فسيباركك ويجعل زواجك ناجحاً. لا تقلقي كثيراً بشأن ما قد يحدث أو ما يحمله المستقبل، ثقي بأن الله سيحميكِ، وحافظي على التواصل معه بذكره، التضرع له وفعل الخير.

كان زواج الأغلبية العظمى من أخواتي «منظماً»، وعشن لسرد الحكاية. التقت أم تسنيم واقترنت بزوجها في غضون أسبوع واحد، وقصتها لا تفشل أبداً في إثارة سعادة المسلمين ودهشة غير المسلمين. كانت ابنتها من زواج سابق تبلغ من العمر ست سنوات في ذلك الوقت، وبعد عدّة لقاءات غير ناجحة مع إخوة غير مناسبين، كانت على وشك التخلي عن الأمر عندما عرفت عن أخ جديد على المجموعة: كان طالباً في جامعة إسلامية، يدير عملاً صغيراً، ذا طبيعة لطيفة ويبحث عن زوجة. كان كل من يعرفه يذكره بالخير، وأدركت أن عليها أن تلتقي به! حسناً، انتهى بها الأمر بلقائه، وعندما سألته عن شعوره بشأن الاعتناء بطفلة رجل آخر، قال الكلمات التي كانت تتوق لسماعها، كلمات لم يذكرها أي رجل آخر: أن الذي يعتني بيتيم سيكون مع النبي ﷺ في الجنة. كما يقول الحديث: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى) كانت تلك كلمات جعلت قلبها يذوب، وكما قال لها آخرون، عرفت مباشرة أنها تريد الزواج منه. ألحّت ابنتها، التي لم تكن سعيدة بكل الرجال الآخرين الذين التقتهم أمها من قبل، عليها بأن تتزوجه لأنه «الشخص المناسب». وفي الواقع، كان الأخ المذكور مستعداً للزواج منها دون حتى أن يرى وجهها! على أي حال، رآه للحظة قصيرة، وتزوجا بعد أسبوع. بعد ست سنوات والمزيد من الأطفال خلال تلك المدة، ما يزال وجهها يشع ألقاً عندما تسرد القصة.

حب لا مثيل له

مناقشة موضوع الحب مع مجموعة من الأخوات تجربة مثيرة للاهتمام، والتي تصبح أكثر حدّة عندما ندرك حقيقة أن العالم الخارجي يعد أنه ليس لدينا «تلك الأنواع» من المشاعر. بالمحصلة، متى كانت المرة الأخيرة التي شاهدتم بها ثنائياً مسلماً، المرأة ترتدي النقاب والزوج يطلق لحيته ويرتدي ثوباً أبيض، يمسكان أيدي بعضهما، يتعانقان أو، سأتجرأ على القول: يقبلان بعضهما علانية؟ صحيح، لم تروا شيئاً مماثلاً أبداً. لهذا لن يفاجئني إذا كان الانطباع الكلي عن الزواج الإسلامي التقليدي بأنه سيطرة وإذعان، قواعد وأنظمة، غير ممكن وغير مسموح، واجب ومعاناة. كيف يكون هناك مساحة للهوى، الرومانسية، المودة والحب في مثل هذا الاقتران الجاف المنظّم سلفاً؟

عندما نعتنق الإسلام، لا يتخلص معظمنا من كل الأفكار والتقاليد التي نشأنا معها. إحدى أكثر الأفكار تغلغلاً في الثقافة العامة الغربية، التي نشرتها الأفلام، والكتب والموسيقى، بسيطة: «الحب يجعل العالم يدور». منذ سن مبكرة، وعبر الحكايات الخيالية وتجارب الطفولة الأخرى، تتعلم الفتيات أن ينتظرن استعداداً لـ«حب حياتكِ». كنا جميعاً نؤمن بـ«الحب من النظرة الأولى» في وقت ما، و«الحب يتغلب على كل شيء» وأهمية العثور على «حبك الصادق حقاً». نظرة خاطفة على الثقافة الشعبية لأي حقبة ستؤكد على مركزية الحب من نظرة العالم الغربي. لهذا ماذا عن الحب والرومانسية عندما يعتنق المرء الإسلام؟

برغم أنه قد يحمل خصائص مشابهة مثل اللطف، والرومانسية والمودة، إلا أن الحب الإسلامي مختلف عن الحب في الجاهلية، «وقت الجهل» قبل الإسلام. في الجوهر، يستند الحب في الإسلام على الحب في الله، وهذا يعني محبة ما يحبه الله في الشخص: الإيمان، والإذعان، والتقوى، والأخلاق الإسلامية، والشخصية الطيبة والدين القوي. تحتل هذه المزايا في الشخص الأولوية على الخصائص المادية أو الدنيوية الأخرى.

خلال أمسية ممتعة للغاية من النقاش، والاعتراف والضحك، أخبرتني غانية أن: «الفرق بين الحب في الإسلام والحب في الجاهلية هو أنكِ في الإسلام تحبين في الله، فيما في الجاهلية تحبين وحدكِ؛ لأن قلبك وغرائزك تنجذب إلى ذلك الشخص».

أضافت كلير المال، والمكانة، والامتيازات والجنس؛ لكن في مزاجٍ أكثر صفاءً، كانت غانية مرتاحة وتابعت قائلة: «شخص يبدو مثل براد بيت، شخص ثري جداً أو [كما قالت بلهجة لاهوري التي تجيدها] شخص يكون طبيباً أو مهندساً أو طياراً أو مهماً يسعد والديكِ». كانت هناك ضحكات إقرار وموافقة من النساء الأخريات.

«في الجاهلية، تؤثر عليكِ كل أنواع العوامل، طموح والديكِ، القيم التي نشأت عليها. في حالتي، كانت تلك تتعلق بالمؤهلات، المهنة الجيدة، وربما التدريب الفكري أو الأكاديمي بشيء ما، أشياء ضحلة، حقاً. كان صعباً جداً بالنسبة لي الابتعاد عن طريقة التفكير تلك عندما بدأت الالتزام بادئ الأمر. عندما ازداد إيماني وفهمي للإسلام، تعلمت وضع ثقتي في الله. توقفت عن التعلّق

بالصورة والمظهر، وأدركت أن الجميل في الرجل مدى عبوديته لله. عندما التقيت زوجي أول مرة، لم يكن فيه أي من الأشياء التي كنت سأبحث عنها في الجاهلية، لكن بدلاً من ذلك كان يتمتع بمجموعة أخرى من القيم والخصائص التي تبدو أكثر جمالاً لي الآن بعد أن تعلمت أن أحب ما يحبه الله» سارة.

الحب في الله أعلى منزلة بطرق عديدة من الحب لأجل الآخرين، ولأسباب أكثر أنانية. أولاً، الحب في الله لا يتقلّب وفقاً لأهوائك ورغباتك إنه ثابت، طالما أن الشخص الآخر يبذل ما بوسعه أيضاً لإرضاء الله. ثانياً، ذلك الحب من النوع الذي يدفع الشخص لمنح الشريك حقوقه، حتى إذا لم يكن يشعر نحوه بذلك.

كما يقول الله:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

«إذا كان يخاف الله، إذا كان يعبد الله كما ينبغي له، فسيعاملك بالمعروف؛ لأنه يعرف أنكِ أمة الله وأنه عبد الله. سوف يسأله الله حول طريقة معاملته لك وكيف كنت زوجة له، لهذا يعود الأمر كله إلى الله» غانية.

غالباً، يميّز الناس بين «زواج الحب» و «الزواج المنظّم»، كما لو أن الاثنين متعارضان. بحلول الوقت الذي كنت فيه على وشك الزواج بنفسي، كنت أعرف أن ذلك ليس صحيحاً. يعتقد معظم الناس أن الحب

ينمو من اهتمامات مشتركة، قضاء الوقت معاً والعلاقة الجسدية. برغم أن هذه الأشياء قد تزيد الحب، إلا أننا نعتقد، بوصفنا مسلمين، أن الحب مثل بذرة يزرعها الله الودود في القلوب. لهذا، الله من يجمع القلوب معاً ويضع الحب فيها. ولهذا نؤمن بأننا سنحظى بأزواجٍ محبين، حتى إذا لم نكن نعرفهم، ولم نفعل ما من شأنه جعل ذلك الحب ينمو. لكن كل النوايا الصافية، التضرعات الخافتة في السجود، بذل أقصى جهد في طاعة الله، وحتى اللمسة الأكثر رقة، تلك هي الأشياء التي تجعل الحب بين المسلمين مباركاً.

نكاحي

بعد الكثير من الأخذ والرد بشأن الموعد ـ أولاً في رمضان، ثم أيلول، ثم آب، ثم نيسان وأخيراً في شباط ـ استيقظت في اليوم الأول من نكاحي ـ يوم زفافي ـ ممتلئة إثارة. كانت زميلتي العزيزة في السكن، حياة، قد أعدّت إفطاراً خاصاً لي، حبوب مع فراولة طازجة وعصير برتقال بكأس مزيّن. كانت لدي عباءة جديدة بلون خاكي (أسمر ضارب إلى الصفرة) مصنوعة خصيصاً لهذا اليوم وارتديتها مع وشاح عريض من الحرير الصيني بلون الباذنجان. على أي حال، مقارنة بالاستعدادات التقليدية لزفاف إسلامي، كان زفافي بسيطاً للغاية: كنت قد أقمت حفلة حنّة قبل أسبوع، وقامت أخت سودانية بتزيين يديّ وقدميّ بأشكال حنّة داكنة. لم يكن هناك تعطير للجو بشذا خاص، البخور، لساعات في النهاية، لم يكن هناك حمام بخار، لا تشميع لليدين والساقين لإزالة الشعر الذي ينمو هناك، لم يكن هناك تجمع كبير للعائلة، لا قدور كبيرة من الطعام الذي

يتم طهيه، لا أقارب من كل أنحاء إنكلترا ومن أرجاء العالم. كانت مناسبة هادئة وبسيطة. تزوجت زوجي في قبو مكتبة إسلامية، محصورة بين كتب الشيخ البخاري من جهة والحاسب من جهة أخرى. كان ذلك هو نكاحي.

الزفاف

النكاح هو الاحتفال البسيط الذي يشهر الزواج الإسلامي. يحضر فيه العريس وولي المرأة، معاً مع العروس وأحياناً الأصدقاء وأفراد الأسرة الآخرين. يتم إعلان عقد الزواج والشهادة عليه. يتم تحديد المهر والشهادة عليه. وهذا كل ما في الأمر.

مقارنة بالزفاف الغربي التقليدي، النكاح الإسلامي مقتصد في الاحتفال والنفقات.

عقد الزواج مشابه لاتفاق الزفاف. فيه، تضع المرأة شروطاً معينة ينبغي أن يوافق ويوقع عليها زوجها قبل إتمام الزواج، والتي ربما تتضمن نصوصاً بشأن العمل، الزواج من أخرى، مغادرة البلاد، بالمختصر، أي شرط ترغب المرأة به يكون موضع احترام ويتم تنفيذه. يعد عدم الوفاء بشروط عقد الزواج أساساً للطلاق في الشريعة الإسلامية.

المهر يشبه ما هو موجود في ثقافات أخرى، ما عدا أنه يتم تقديمه للعروس وليس لعائلتها. تستطيع طلب مهر كبيراً (أو قليلاً) حسب رغبتها، سواء كان مالاً أو غير ذلك. تتضمن بعض أمثلة المهر معرفة بالقرآن أو شيء ديني آخر (الذي ينبغي تعليمه لها)، أموالاً، ذهباً ومجوهرات، كتباً، ملابس، أدوات منزلية أو رحلات. في حالة أم تسنيم، كان جزء من مهرها رحلة إلى المملكة العربية السعودية لأداء العمرة.

برغم أن النكاح عادة شـأن خاص يتم بهدوء، إلا أن الوليمة، احتفالية الزفاف التي تتبعه، على النقيض تماماً من ذلك. هدفها الإشـهار علانية أن الشخصـين متزوجـان الآن وقد حان وقت الاحتفـال والمرح، ويتم فيها تقديم الطعام وتغني فيها النسـاء والأطفال ويضربن على الدف، (الطبلة اليدوية)، بين أنفسهن.

أتذكـر أول مرة ذهبت فيهـا إلى وليمة. كانـت كل الأخوات يخططن لما سـيرتدينه منذ أسـابيع، وفي النهاية، كان لون الأمسـية ورديا: بذلات وردية، سـروال وقميص ورديـان، تنانير وردية موشـحة باللون الذهبي، غوغـورات، وسـاري وردي. تألقت الأخـوات بمودّتهن وزينتهـن المنتقاة بعنايـة، وتلألأت آذانهـن بالأقراط، وتثاقلت أيديهـن وأناملهن بالذهب والفضـة، بذلـن جميعهـن جهدهن. بعـد تناول طعـام شـمال أفريقية الشهي، ذهبت العروس لتغيّر ملابسها، وفقاً للتقاليد في حفلات الزفاف الجزائريـة والمغربيـة. نظّمنا الفتيات الصـغيرات لمرافقتها إلى الطابق الأعلى فيما قمنا بتشـكيل صفّين استعداداً لاستقبالها. صعدت السلالم، رأسـها مغطّى بقلنسـوة جلابيتها المغربية المزركشة. صعدت معها أخت، تضـرب على الطبلة اليدوية، وحالما دخلت الغرفة، بدأنا نشـدو بأغنيتها المفضّـلة، الأغنية التي كنا قد كتبناها لها، مع اسمها كلازمة. كان عليها أن تسـتدير في المنتصـف عدّة مرات قبـل أن تجلس علـى الدثار المجهّز خصيصـاً لها. ثم غنينا، سردنا القصص، زودناها بالنصائح، رقصنا وغنينـا مرة أخرى، حتى وقت متأخر من الليل. حتى هذا اليوم، تبتسـم تلك الأخت عندما تتذكر الوليمة، يوم اجتماع الأخوات، المرح والضـحك الذي شهد دخولها حياة الزوجية.